

أثر السياق في تفسير البحر المحييط لأبي حيان الأندلسي

بيان مرجع الضمير أنموذجاً

The impact of context in interpretation of Al-Bahr al-Muheet by Abu Hayyan al- Andalusí: Pronoun reference statement as a mode

دو ميلود^{1*}، أ.د. مطهري صفية²

¹ جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، doumiloud32@hotmail.com

مخبر الدلالة في المستويات اللسانية في التراث الأدبي الجزائري (slpla)

² جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، Smetahri@gmail.com

مخبر الدلالة في المستويات اللسانية في التراث الأدبي الجزائري (slpla)

تاريخ النشر: 2022/03/28

تاريخ القبول: 2022/01/11

تاريخ الإرسال: 2021/12/22

ملخص: يضطلع السياق بأدوار كثيرة وهامة، ولاسيما في تفسير كتاب الله عز وجل؛ وتأسيسا عليه، تنهض هذه الدراسة التطبيقية إلى بيان دور السياق في توجيه مرجع الضمائر في تفسير البحر المحييط لأبي حيان الأندلسي (ت745هـ)، وبيان أهم عناصره عنده، متمثلة في السياق اللغوي والمقامي؛ والأول يهتم بتوجيه النص من داخله، والثاني يُعنى بتوجيه النص من خارجه. ونظرا لسعة مادة المدونة المدروسة، فقد رأى الباحث حصر الدراسة في الأجزاء العشرة الأولى من القرآن، متبعا في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: السياق؛ مرجع الضمير، أثر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحييط.

ABSTRACT : The context plays several important roles in the production of meaning, Especially in the interpretation of the Qur'an. Based on it, this applied study aims to clarify the role of context in directing the reference of pronouns in of on Tafsir of Al-Bahr al-Muheet by Abu Hayyan al-Andalusí (died 745 A.H.). This included highlighting the most important elements of the linguistic and occasional contexts And a statement of the most important elements of it, represented in the linguistic and occasional context, The first is concerned with directing the text from within, and the second is concerned with directing the text from outside it. In view of the vastness of the studied blog material, the researcher considered limiting the study to the first ten parts of the Qur'an, following the descriptive analytical method.

Keywords: the context, Pronoun Reference, impact , Abu-Hayyan Al-andalusí, Al-Bahr Al-Muheet.

لمرجع الضمير حظوة عظيمة عند الباحثين، خصوصا في ميدان الدراسات القرآنية؛ لما له من أثر جسيم في فهم الخطاب، وإثراء دلالاته وتلويحها، وباعتباره أحد أسباب اختلاف العلماء في الحقل التفسيري؛ ومرد ذلك إلى ما تصطبغ به الضمائر- في بعض الأحيان- من الغموض، وما تتسم به من الإبهام؛ لعدم امتلاكها دلالة مستقلة؛ مما يصعب على المتلقي عملية تحديد مرجع الإحالة (مرجع الضمير)؛ فيوكل- حينئذ- إلى السياق مهمة إزاحة الإبهام، وقشع ضباب الغموض عن تلك المراجع، والترجيح بينها كذلك، باستصحاب مجموع القرائن المقالية والمقامية.

فالسباق يضطلع أحسن اضطلاع بعملية تحديد مرجع الضمير وبيان حركته، وأثره في تماسك النصوص؛ بما يفضي -في حال الانعزال عنه وعدم استثمار طاقاته- إلى ركوب متن التعسف، والوقوع في مهاوي الزلل؛ ولا سيما في كتاب الله؛ فإن "كثيرا من المؤولين قدماء ومحدثين لم يراعوا السياق الذي تُدوّل فيه القرآن، وإنما فرضوا سياقهم عليه فحملوه ما لا يحتمل؛ فجاءوا بهذين كبير"¹، وألوان من الشطط في التحليل، وبمستنكرات التأويلات.

وقد أدرك علماء الإسلام القدامى -من أصوليين ومفسرين ولغويين- قيمة السياق وأولوه عناية كبرى؛ فثنوا إليه أئنة الاعتناء، وأنزلوه المكان اللائق به؛ لذلك "فإننا نلاحظ -باعتزاز- ما استكملة العلماء العرب القدامى على اختلاف مكُوناتهم الثقافية وتخصّصاتهم المعرفية- من دراسات مستفيضة لدور السياق في الكشف عن دلالة الكلمة أو الكشف عن فعلها في حركة التركيب الذي ترد فيه، أو ملاحظة بنيتها الصرفية، أو وظيفتها النحوية، أو وجودها في التركيب المشكل أو الخفيّ أو الغامض، أو المحكم، أو المتشابه، أو النص أو المفسّر... وزادوا على ذلك أدوارا أخرى للسياق في تأدية المعنى، وتحديدده، ورفع أيّ توهّم، أو لبس، أو غموض فيه"².

ومن هؤلاء العلماء تلميذ الأندلس أبو حيان الغرناطي (ت745هـ) -رحمه الله-، في كتابه "البحر المحيط" في التفسير، فلقد تمثّل في كتابه المذكور هذا المشغل وقاربه، وكان واعيا بفاعلية السياق الحاسمة في العملية التفسيرية؛ فلم يقف عند حدود التفسير والفهم؛ بل تجاوز ذلك إلى الإفادة من السياق في ترجيح فهم على آخر للنصوص الكريمة، تبعا لما يمليه عليه السياق.

وتنهض هذه الورقة إلى تناول جهود أبي حيان في بيان مرجع الضمير في النص القرآني، وبيان مدى تأثير القرائن السياقية في توجيهاته؛ مستهلين الدراسة بتعريف السياق لغة واصطلاحا، وذكر أنواعه، وتعريف الضمير لغة واصطلاحا، والمرجع لغة واصطلاحا، وتحديد المقصود بمرجع الضمير، والوقوف على ضابط مرجع الضمير، وذكر مظاهر اختلاف المفسرين في عود الضمير، ثم أهم الشروط التي يجب توافرها بين الضمير ومفسّره؛ لندلف بعدها إلى الجانب التطبيقي، مقدمين نماذج تحليلية منتقاة من الأجزاء العشرة الأولى للقرآن، نبين من خلالها أثر السياق في بيان مرجعية الضمير من خلال تفسير البحر المحيط.

2. تعريف السياق

1.2 لغة: تترد هذه الكلمة في اللغة إلى الجذر الثلاثي "س-و-ق"، وتؤول استعمالات هذا الجذر إلى معنى التتابع المنتظم في الحركة توصلاً إلى غاية محدّدة، دون أن يكون هناك انقطاع أو انفصال³. فملح التتابع والتوالي والانتظام والتناسق والاتصال والتسلسل، هو ملح أساسي في استعمالات هذا الجذر.

2.2 اصطلاحاً:

من العسير الرسو على تعريف اصطلاحيّ دقيق للسياق؛ لاختلاف أنظار الباحثين حوله؛ لذلك من الأجدر قبل أن نتعرض لمفهوم السياق اصطلاحاً أن نشير أن السياق على قسمين: السياق اللغوي (السياق الداخلي)، والسياق غير اللغوي (السياق الخارجي). وجلاء ذلك أن السياق يعني واحداً من اثنين: أولاً- السياق اللغوي: وهو "دراسة النص من خلال علاقات ألفاظه بعضها ببعض، والأدوات المستعملة للربط بين هذه الألفاظ، وما يترتب على تلك العلائق من دلالات جزئية وكلية"⁴. ثانياً- السياق غير اللغوي: وهو "مجموع العناصر الاجتماعية، والثقافية المتصلة بالنص الكلامي، والتي تؤثر في فهمه"⁵.

أما السياق اصطلاحاً فهو "ما يسبق أو يلحق الوحدة اللغوية من وحدات أخرى تتحكم في وظيفتها وتسهم في معناها، وفي مجال اللسانيات يمتد ليشمل سياق الموقف وهو كل الظروف والملابسات التي تحيط بالنص؛ مما يتصل بالمتكلم ومقاصده واهتماماته، والمخاطب وما بينه وبين المتكلم من علاقة"⁶. ويظهر من خلال هذا التعريف أن السياق حلقة صميمية في كيان العملية التأويلية للنصوص، بما له من أثر قوي معتبر في فهم المرادات، وتجليه مكنون الدلالات، وتسييج النصوص بمتين السياج، يعزب بها عن الشطط والتميع والعبثية.

إن السياق بقدر ما يشكّل معطى معرفياً عظيماً لا يمكن التغلف عنه، يشكّل أيضاً ظاهرة خطيرة يمكن من خلالها تبرير انحرافات وضلالات، وما نجده من سوق عصا السياق في توجيه النصوص الدينية قرآناً وسنةً ما هو إلا من هذا القبيل، ولذلك ينبغي التشديد على كون توجّي مبدأ السياق في النص الديني عموماً والقرآني خصوصاً لا بد أن يخضع لضوابط رصينة ودقيقة، لكي لا يقال بأن فكّ النص القرآني باب مُشرّع لا يعتمد ضابطاً معيناً.

3- الضمير

1.3- لغة: تدور معاني مادة (ض-م-ر) حول الاستتار وزوال الشيء عن العيان، أو الضالة والضعف والهزال. **2.3- اصطلاحاً:** عرّفه ابن الحاجب بقوله: "المضمّر ما وضع لمتكلم، أو مخاطب، أو غائب، تقدّم ذكره لفظاً، أو معنى، أو حكماً"⁷.

ولم يخف على العلماء ذلك الارتباط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للضمير؛ لذا نجد ابن هشام -مثلاً- يشير إلى جهة الارتباط بينهما، فيقول: "إنّما سُمّي مضمراً من قولهم: "أضمرت الشيء" إذا سترته وأخفيتّه، ومنه قولهم: "أضمرت الشيء في نفسي"، أو من الضمور وهو الهزال؛ لأنّه في الغالب قليل الحروف"⁸؛ باعتبار أن "معظم الضمائر كلمات صغيرة التكوين، ضئيلة الحجم، فهي تتكون من حرف واحد

نحو: تاء الفاعل، وواو الجماعة. وقد تتكون من حرفين أو مقطعين، نحو: هو، هي، هم... إلخ⁹، "ثم تلك الحروفُ الموضوعَةُ له غالبها مَهْمُوسَةٌ -وهي التَّاء والكاف والهاء- والهمسُ: هو الصوتُ الخفيُّ"¹⁰. والضمائر كلها لا تخلو من إبهام في ذاتها؛ لافتقارها إلى خاصية إيصال المعنى بنفسها، وحاجتها إلى مَوْضِحٍ ومفسِّرٍ يفسِّر غموضها ويعجم إبهامها، سواء أكان سابقا عليها أم لاحقا بها، وعدم أدائها دلالةً متضحَةً محدَّدةً إلا من خلال هذا المُظْهِر - يجعلها مهمة¹¹؛ وإنما أتاها الإبهام من حيث إنه لا تدل على مسماهما كالاسم، وإنما تعمل على تعيين مسماهما، ولا تدل على موصوف بالحدث، ولا على حدث وزمن كالفعل¹². وهو ما يقودنا إلى الحديث عن ذلك المفسِّر والمَوْضِح، والذي اصطلح على تسميته بمَرْجِع الضمير.

4- تعريف المرجع

1.4- لغة: هو مصدر ميمي معناه الرجوع، يقال: رجع يرجع رجعا، ورجوعا، ورجعى، ورجعانا، ومَرْجِعا ومرجعة. وتندرج مشتقات هذه المادة تحت عباءة المعاني الآتية: الرَّد، والتكرار، والانصراف، والعودة، والاستبدال، والفائدة¹³. وهي تنحصر بالدرجة الأولى في الدلالة على فعل "الرجوع" لا مكانه. وهذه الدلالة المحورية هي أصل المعنى في المصطلح على ما سيأتي بيانه.

2.4- اصطلاحا: يعرف بأنه: "الشيء الذي تحيل عليه العلامة اللسانية، وقد يكون المرجع ماديا ملموسا، وقد يكون متخيلا"¹⁴. ويعرف أيضا بأنه "كل ما يؤوّل مبهما في الملفوظ، ولهذا قد يكون عنصرا في النص كما قد يكون عنصرا من خارج النص، والمرجع في هذه الحالة معيّن بدقة في فضاء التلفظ"¹⁵.

5. تعريف مرجع الضمير

أما مرجع الضمير - بهذا الإسناد الإضافي - فقد عُرِف بأنه "الاسم المفسِّر المَوْضِح الذي يعود عليه ضمير الغائب"¹⁶، فيكون بمعنى: الاسم المفسِّر المَوْضِح المرجوع عليه أو إليه بضمير الغائب؛ أي أن كلمة (مرجع) مصدرٌ واقعٌ موقعٌ اسم المفعول (المرجع عليه/إليه)، فيتحصل بذلك أنه مجاز مرسل، من إطلاق المصدر على اسم المفعول؛ فيندرج حينها ضمن باب التناوب الدلالي بين الصيغ الصرفية¹⁷.

وعرف أيضا بأنه الاسم الذي يعود عليه الضمير، ويبين المراد منه، ويسمى أيضا: مفسِّر الضمير¹⁸. وعرف كذلك بأنه "الاسم المعوِّض عنه بالضمير"¹⁹؛ فالضمائر وحدات لسانية تستعمل لتعوّض وتنوب عن وحدات لسانية أخرى مذكورة سلفا أو تعود عليها.

والمقصود بالضمير - تحديدا - في التعريف الأخيرين هو ضمير الغائب، كالتعريف الأول، دون قَسِيَمَيْهِ: ضمير المتكلم وضمير المخاطب؛ فرغم أن الضمائر - على وجه العموم - فارغة دلاليا، بمعنى أن دلالتها في المعجم تمثل صفرا، وبالتالي لا تقوم بدورها إذا استخدمت منفردة، بل لا بد له من تركيب تعمل من خلاله²⁰، إلا أن ضمير الغائب هو أكثر الضمائر إبهاما وغموضا، لذا كان أضعف الضمائر تعريفا، فكان لا بد من شيء يفسِّره، ويوضِّح المراد منه²¹، لكون صاحبه غير معروف، لا بحضور، ولا مشاهدة، عكس الآخرَيْن. هذا، وتترادف مصطلحات العود، والإحالة، والإرجاع، والمفسِّر، في الدلالة على الإشارة بالضمير أو غيره إلى كلمة أخرى في التركيب، سواء أكانت الكلمة سابقة أم لاحقة، وإن كان الشائع لدى النصيين المحدثين استعمال مصطلح (الإحالة) في مقابل استعمال القدماء مصطلح العود²².

6. ضابط مرجع الضمير:

يشترط في مرجع الضمير أن يلزم صفة الاسمية، لفظا كان أو تقديرا، "فمفسر الضمير لا يكون فعلا ولا حرفا"²³، إلا أنه "يصح أن يعود على الفعل والحرف إذا قصد لفظهما"²⁴، وتوضيح ذلك أنك "عند قصدك تعيين عود الضمير في الجملة: لا تنظر إلى فعل ولا إلى حرف مطلقاً، إلا إذا أردت اشتقاق الاسمية منه عند عدم الاسم الصريح، والأصل أن نتبع الأسماء؛ لنختار منها ما يصلح أن يكون عائداً على الضمير؛ لنستنتج ماهية المرجع والعائد، من حيث الذكر أو الحذف، ومن حيث ملاحظة المطابقة أو المخالفة بين الضمير والعائد"²⁵.

7. مظاهر اختلاف المفسرين في عود الضمير:

ورد ضمير الغائب في القرآن الكريم بصورة كثيرة غير صريحة، ومتعددا وغير محدد²⁶، وقد كان محل اختلاف المفسرين؛ لما ينجم عن تحديد مرجعه من إلباس وتردد. ومظاهر اختلاف المفسرين في عود الضمير كثيرة، ومن أبرزها²⁷:

- (1) إعادة بعض المفسرين الضمير إلى أكثر من مذكور، وبعضهم يعيده إلى مذكور واحد.
- (2) التزام بعض المفسرين بعود الضمير إلى أقرب مذكور، بينما يعيده البعض الآخر إلى غير الأقرب.
- (3) اعتبار بعض المفسرين أن رجوع الضمير إلى المحدث عنه في الآية أولى من غيره.
- (4) حمل بعض المفسرين الضمير على أنه ضمير الشأن، بينما يحمله البعض الآخر على غير ضمير الشأن.
- (5) إعادة بعض المفسرين الضمير إلى مذكور، وبعضهم إلى غير مذكور دلّ عليه المقام.
- (6) مراعاة بعض المفسرين للسياق في تحديد وتوحيد مرجع الضمير، وعدم مراعاة البعض الآخر منهم لذلك.
- (7) مراعاة بعض المفسرين لوجود مرجحات لتعيين مرجع الضمير، وهي: الترجيح بآية أخرى، أو قراءة أخرى للآية نفسها، أو الترجيح بالسنة النبوية، أو بقاعدة أصولية، أو الترجيح بعدة مرجحات.

8. أهم الشروط التي يجب توافرها بين الضمير ومفسره:

- 1- يجب أن يكون لكل ضمير مفسر.
 - 2- يجب أن يتساوى الضمير ومفسره في الأفراد والتثنية والجمع.
 - 3- مفسر الضمير يجب أن يكون متقدما عليه.
 - 4- يجب أن يتفق الضمير ومفسره في الجنس تذكيرا وتأنثا.
 - 5- أن يدل سياق الكلام على المفسر التزاما لا تضمنا، وهذا الالتزام للمفسر نوعان: قريب، وبعيد.
- وهكذا يظهر دور السياق في بيان مرجع الضمير، وأن له ضوابط من خلالها يمكن بيان مرجع الضمير²⁸.

9. الدراسة التطبيقية

يعد أبو حيان-رحمه الله- من جملة الذين استخدموا السياق في مساحات متعددة من تفسيره، أفضت بمجملها إلى أن للسياق أهمية بالغة عنده؛ ومن تلك المواطن تناوله للضمير في القرآن؛ فهو عنده لفظة محكومة بالسياق لفهم معناها، فلا يمكن أن تستقيم دلالتها إلا بالنظر لارتباطها بما يجاورها من كلمات وجمل، إذ هو يتمتع بالاستقلالية والانحياز إلى الدلالة السياقية، فلا يتبع مرجعا قبله ولا بعده، بل يلجأ العقل لفهمه إلى علاقات التأثير والتأثر بين الألفاظ بعضها ببعض. وفيما يأتي نماذج لذلك:

-النموذج الأول: قوله تعالى: "وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا" [البقرة:72]

الضمير المؤنث في (فيها) يحتمل أن يعود على:

1- النفس، أي أنه عاد على أقرب مذكور سابق.

2- المصدر المفهوم من الفعل المذكور في الجملة (قتلتكم ← مصدره: القُتْلَة)، أي المفهوم من السياق؛ فأكثر ما يحذف المصدر، يكون مدلولاً عليه بالفعل²⁹؛ وذلك لاشتراكهما في أصل المعنى العام، وفي الاشتقاق³⁰.

3- المعنى العام المفهوم من الآيات؛ أي من سياق المقام؛ وهو درء تهمة القتل ودفع شبهة الجريمة عن أنفسهم. قال أبو حيان: "وَالضَّمِيرُ فِي: "فِيهَا" عَائِدٌ عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَقِيلَ: عَلَى الْقَتْلَةِ، فَيَعُودُ عَلَى الْمَصْدَرِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْفِعْلِ، وَقِيلَ: عَلَى التُّهْمَةِ، فَيَعُودُ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْكَلَامِ"³¹.

ومهما قدر المرجع هنا فالمعنى يحتمله، والسياق لا يأباه، إلا أن أبا حيان اختار الوجه الأول؛ تمسكا بظاهر السياق بعودة الضمير إلى لفظ قريب مذكور في التركيب، مع عدم وجود ما يقتضي العدول عنه إلى غيره.

-النموذج الثاني: قوله تعالى: "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" [البقرة:97]

فضمير المنصوب في (فإنه)، والمرفوع في (نَزَّلَهُ) يتجاذبهما مفسران، لذا اختلف في مرجعهما:

أ- فقيل: الضميران عائدان على (جبريل)، وهو أقرب مذكور.

ب- وقيل: عائدان على محذوف هو (الله) الذي دل عليه سياق الكلام.

وقد وجّه أبو حيان كلا القولين توجهاً سياقياً؛ حيث قال عن الوجه الأول: "وَالضَّمِيرُ فِي "فَإِنَّهُ" عَائِدٌ عَلَى جِبْرِيلَ، وَالضَّمِيرُ فِي "نَزَّلَهُ" عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: "مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ"؟ وَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ صِفَاتِ الْقُرْآنِ. وَلِقَوْلِهِ: "بِإِذْنِ اللَّهِ"، أَيْ: فَإِنَّ جِبْرِيلَ نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ"³².

وهذا استدلال واضح بالسياق اللغوي (اللاحق) على أن جبريل -وهو أقرب مذكور- هو مرجع الضميرين معا (المنصوب، والمرفوع)؛ ودعامة ذلك كون ضمير النصب في (نَزَّلَهُ) عائداً على القرآن المفهوم من لحاق الآية، بتعدداده لصفات القرآن (التصديق لما بين يديه، والهداية، والبشارة)، كما صرح بذلك أبو حيان؛ ومعلوم أن جبريل هو سفير الله بين رسله والملك المتوَلَّى لإنزال الوحي، والسياق يتمحور حوله ببيان عداوة اليهود له، مع أنه "مَنْ لَا يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ عَدَاوَتِهِمْ، وَهُوَ مَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَادَى، لِأَنَّهُ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ... أَتَى بِالْقُرْآنِ الْمُصَدِّقِ لِكِتَابِهِمْ، وَالْمُسْتَمِلِ عَلَى الْهُدَى وَالْبَشَارَةِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، فَكَانَ يَنْبَغِي الْمُبَادَرَةُ إِلَى وَلَائِهِ وَمَحَبَّتِهِ"³³.

وقال عن الوجه الثاني: "وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي "فَإِنَّهُ" عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ، وَفِي "نَزَّلَهُ" عَائِدٌ عَلَى جِبْرِيلَ، التَّقْدِيرُ: فَإِنَّ اللَّهَ نَزَّلَ جِبْرِيلَ بِالْقُرْآنِ عَلَى قَلْبِكَ. وَفِي كُلِّ مِنْ هَذَيْنِ التَّقْدِيرَيْنِ إِضْمَارٌ يَعُودُ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْمَعْنَى"³⁴؛ فيكون مرجع الضمير المنصوب في (فإنه)، والمرفوع في (نزله)، أي فاعل التنزيل، هو (الله)، أما مرجع الضمير المنصوب في (نَزَّلَهُ) فهو جبريل، وهذه المرجعية الضمائية مرتكزة على السياق هي كذلك؛ مع ملاحظة أن لفظة (القرآن)، تكون على هذا الوجه، هي أيضاً مضمرة، دل عليها السياق بلحاظه.

ثم بيّن أبو حيان ميله إلى القول الأول، معللاً ذلك، فقال: "لَكِنَّ التَّفْدِيرَ الْأَوَّلَ أَوَّلِي، لِمَا ذَكَرْنَاهُ، وَلِيَكُونَ مُوَافِقًا لِقَوْلِهِ: "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ" (الشعراء: 193-194)، وَيَنْظُرُ لِلتَّفْدِيرِ الثَّانِي قِرَاءَةً مَنْ قَرَأَ: "نَزَلَ" بِالتَّشْدِيدِ، وَ"الرُّوحَ" بِالنَّصْبِ"³⁵.

أي أن كلا الوجهين يشهد له السياق الحاف (السياق الأصغر)، كما مر معنا، وكلاهما يشهد له السياق الأكبر؛ فالوجه الأول تشهد له آية أخرى، والوجه الثاني تشهد له قراءة أخرى للآية نفسها؛ فهو معضود بالقاعدة الترجيحية التالية: "القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدّم على ما عدم ذلك"³⁶، وهذا يندرج ضمن ما يسعى بالتكامل السياقي"³⁷؛ فاستويا بذلك في هذه الناحية، فليس أحدهما بأقوى من الآخر، إلا أن للوجه الأول قرينة هادية ترجحه على الثاني، وهي قاعدة: "عود الضمير على مذكور أولى من عوده على مقدر"، وجبريل مذكور في الآية، والمعنى يمشي في ركابه، كما ألمعنا سابقاً، أما لفظ الجلالة فغير مذكور، وإنما مفهوم من الكلام؛ فبان أن أرجحية الأول على الثاني.

وتكشف هذه الوقفة السياقية حجم الاستبصار وقدر الوعي من أبي حيان بدور السياق في توجيه دلالة الآيات، أو ترجيح دلالة على أختها، سواءً بالسياق الأصغر القريب أو بالسياق الأكبر متمثلاً في آيات أخرى من سور مغايرة، أو قراءات لنفس الآيات المستشهد بها"³⁸.

النموذج الثالث: قوله تعالى: "فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" [آل عمران: 20]

قال أبو حيان: "الضَّمِيرُ فِي: (حَاجُّوكَ)، الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: يَعُودُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِقَوْلِهِ بَعْدُ: "وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ"، وَقِيلَ: يَعُودُ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ، قَدِمُوا الْمَدِينَةَ لِلْمُحَاجَّةِ"³⁹.

فتلخص منه أن ضمير الرفع في (حاجوك) يحتمل أن يعود على:

- 1- على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، استدلالاً بسباق الآية.
- 2- جميع الناس، لقوله عقبه: "وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ"، استدلالاً بلحاق الآية.
- 3- يعود على نَصَارَى نَجْرَانَ، قَدِمُوا الْمَدِينَةَ لِلْمُحَاجَّةِ، استدلالاً بسياق المقام (سبب النزول)؛ لأنه "عائدٌ إلى غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي الْكَلَامِ، بَلْ مَعْلُومٌ مِنَ الْمَقَامِ، وَهُوَ مَقَامُ نَزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَهِيَ قَضِيَّةٌ وَقَدْ نَجْرَانَ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ اهْتَمَوْا بِالْمُحَاجَّةِ حِينَئِذٍ"⁴⁰.

وكما هو ملاحظ؛ فإن الأقوال الثلاثة السابقة تمتح كلها من السياق بنوعيه: إما المقالي، في الوجهين الأولين، وإما المقامي، في الوجه الثالث؛ بيد أن أبا حيان اختار القول الأول، بعود الضمير على أقرب مذكور سابق، أي: على أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى معاً، حملاً منه للفظ "أهل الكتاب" -السابق الذكر في الآية التي قبله- على عمومهم، دون تخصيصه باليهود أو بنصارى نجران"⁴¹؛ بناءً على أنهم المتحدث عنهم في الآية الفارطة، فسباق الآية دائر حول دين الإسلام واختلاف أهل الكتاب فيه، وهو قوله تعالى قبله: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" [آل عمران: 19]، ولحاقها تفريع عليها؛ فإن "الإسلام دينٌ قد أنكروه، واختلافهم في

أَدْيَانِهِمْ يُفْضِي بِهِمْ إِلَى مُحَاجَّةِ الرَّسُولِ فِي تَبْرِيرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، وَأَنَّهُمْ لَيَسُؤُوا عَلَى أَقَلِّ مِمَّا جَاءَ بِهِ دِينَ الْإِسْلَامِ"⁴²؛ فتعود الضمائر -بذلك- إلى مُحَالٍ إليه واحد؛ وهذا كفيل بتأمين وحدة سياقية بين هذه الآيات. أمّا عن رجوع الضمير إلى جميع الناس، فيشمل أهل الكتاب والمشرّكين (المعبر عنهم بالأميين) معا، فقد بيّنّا -أنفا- أن أهل الكتاب هم المعنيّون بالمحاجة، فالضمير لهم، "أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَعْدَ الْهَجْرَةِ، فَانْقَطَعَتْ مُحَاجَّتُهُمْ"⁴³؛ وذلك لكون سورة آل عمران نزلت بالمدينة"⁴⁴؛ فلا مدخل لهم في هذا المساق حينها.

لقد استطاع أبو حيان -رحمه الله- أن يحدد مرجعية الضمير بدقة بالرجوع إلى فعل الفرز أو الغرلة الذي يقوم السياق به.

النموذج الرابع: قوله تعالى: "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ" [النساء: 157]

قال أبو حيان: "وَالضَّمِيرُ فِي "فِيهِ" عَائِدٌ عَلَى الْقَتْلِ مَعْنَاهُ: فِي قَتْلِهِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ"⁴⁵.

ويُلاحظ أنه لم يذكر إلا وجهها واحدا لعود الضمير، بكونه يرجع إلى أقرب مذكور، وهو قتل المسيح، مستدلا له بالسباق واللاحق؛ وتجلية ذلك أن سباق الآية يسلط الضوء على قضية قتل المسيح -عليه السلام-، لقوله تعالى قبله: "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ"، مع الانتباه إلى عدد الكلمات المتمحورة حول القتل، وهي كالآتي: (قتلنا، ما قتلوه، ما صلبوه، ما قتلوه الثانية)؛ ثم يكمل اللاحق تسليط الضوء على تفنيد الله لمزاعم اليهود بأنهم قتلوا المسيح، فقال تعالى بعد ذلك: "مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء: 157-158).

وأبو حيان في هذا يحكّم السياق اللغوي في الاستدلال على رأيه؛ فسياق الآيات يبدأ بالحديث عن قتل المسيح -عليه السلام-، ويستمر في ذلك.

النموذج الخامس: قال تعالى: "وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا" [النساء: 159]

الضمير المجرور في: "به" يحتمل أن يعود إلى:

1- عيسى عليه السلام.

2- النبي صلى الله عليه وسلم.

3- الله عز وجل.

أما الضمير المجرور في: "موته" فيحتمل أن يعود على:

1- عيسى عليه السلام.

2- الكتّابي.

3- الدجال.

ونوضح هذه المراجع المحتملة بهذا الشكل:

1- ليؤمنن بـ (عيسى: مذكور في الكلام) ← قبل موت (عيسى: مذكور في الكلام)

2-ليؤمنن بـ(عيسى: مذكور في الكلام)← قبل موت (الكتابي: اليهود والنصارى: غير مذكور في الكلام)

3-ليؤمنن بـ(محمد: وهو غير مذكور في الكلام)← قبل موت (الكتابي: اليهود والنصارى: غير مذكور في الكلام)

4-ليؤمنن بـ(الله: مذكور في الكلام)← قبل موت الدجال(الذي يقتل على يد عيسى: غير مذكور في الكلام)

ومعنى ذلك أن الضميرين في الآية يحتمل أن يعودا إما على مذكور، وهو عيسى-عليه السلام- أو لفظ الجلالة، وإما أن يعودا على غير مذكور أصلا، على من جعلهما لغير عيسى(النبي صلى الله عليه وسلم، والكتابي، والدجال).

والوجه الأول هو ما استظهره أبو حيان؛ أي أَنَّ كلا الضميرين يعودان على عيسى-عليه السلام-، مع أنه أبعد مذكور مقارنة بلفظ الجلالة؛ وذلك ارتكازا منه على دلالة السياق التي أشار إليها صراحة، والتي يفهم منها أن ما عدا هذا الوجه لا يعضده السياق، حيث قال:"وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَيْنِ فِي: (بِه)، و(موته)، عائدان عَلَى عِيسَى، وَهُوَ سِيَاقُ الْكَلَامِ"⁴⁶؛ والمعنى: أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي زَمَانِ نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان إلا يؤمن بعيسى، حَتَّى تَكُونَ الْمِلَّةُ وَاحِدَةً وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ"⁴⁷.

فالمقام في هذا الموضوع يرجح عودهما عليه؛ حيث تَوَلَّى السَّبَاقُ الحديث عن قضية ادِّعاء اليهود قتلهم له وتفنيد القرآن وتكذيبه لهذا الزعم، ثم تطرق اللِّحَاق إلى قضية إيمان كل أهل الكتاب بعيسى زمن نزوله إلى الأرض في آخر الزمان، فلا حاجة إِذَا إلى تقدير مرجع آخر.

أما لفظ الجلالة، وإن كان الأقرب إلى الضميرين، لكنه غير مراد؛ فالحديث ليس عن الله -تعالى- استقلالاً، وإنما عن صنعه بعيسى وكلاءته له من كيد اليهود، ليتبع ذلك بالحديث عن إيمان أهل الكتاب بعيسى قبل وفاته لا الإيمان بالمولى جل وعزّ.

ويقوِّي هذا المعنى أيضا كَوْنُ المسيح سيكون شاهدا على من عاصروا نزوله في الدنيا، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادَّعوا له بالألوهية، لقوله تعالى:"وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء:157-158)، ثم يكمل السياق الحديث عنه، فيقول:"وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا" (النساء:159).

وسائر الاحتمالات الأخرى المذكورة لا تقوم عنده على ركيزة سياقية داخلية أو خارجية، وإنما هي أقوال لبعض العلماء -كابن عباس وعكرمة- تستند إلى أمور غيبية، وإن احتملها النص إلا أنها ليست منسجمة سياقيا معه مثلما هو الحال مع الوجه الأول المشار إليه آنفا.

ونلاحظ من جهة أخرى أن أبا حيان استعان بقاعدة تفسير القرآن بالحديث؛ فاستدل بحديث متواتر يدل على نزول عيسى ابن مريم، وإيمان الناس به"⁴⁸؛ فربط بين دلالة الآية والحديث ربطا جيدا، وهذا من مظاهر قوة الأساس المنهجي في التفسير.

النموذج السادس: قال تعالى:"وَأَنذِرْ عَالَمِيَّ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" [المائدة:27]

ضمير الجمع المجرور في:"عَالَمِيَّ" يحتمل عند المفسرين أن يعود إلى:

1- بني إسرائيل.

2- قوم النبي صلى الله عليه وسلم⁴⁹.

إلا أن أبا حيان لم يذكر إلا وجهها واحدا لمرجع الضمير، وهو الوجه الأول، بإعادة ضمير الجمع المجرور على مذكور متقدم قريب، وهو اليهود، ثم أسهب في شرح وجهة نظره، موظفا دلالة السياق؛ فقال: "ظَاهِرُهُ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِذْ هُمْ الْمُحَدَّثُ عَنْهُمْ أَوَّلًا، وَالْمَقَامُ عَلَيْهِمُ الْحَجُّ بِسَبَبِ هَمِّهِمْ بِبَسْطِ أَيْدِيهِمْ إِلَى الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَأَعْلِمُوا بِمَا هُوَ فِي غَامِضِ كُتُبِهِمُ الْأَوَّلِ الَّتِي لَا تَعْلُقُ لِلرَّسُولِ بِهَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ، لِتَقُومَ الْحُجَّةُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ، إِذْ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوءَةِ"⁵⁰.

فاستدل على ذلك بدليلين:

الأول: أن المحاورة فيما تقدم إنما هي في شأنهم، وإقامة الحجج عليهم، بسبب همهم ببسط اليد إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه.

الثاني: أن خبر ابني آدم إنما هو في كتبهم التي لا تعلق للرسول -صلى الله عليه- بها إلا من جهة الوحي؛ لتقوم الحجة بذلك عليهم.

وقد انعقد له الاستدلال الفارط بتوظيفه لنوعي السياق: اللغوي (الداخلي) والمقامي (الخارجي)؛ فالسياق اللغوي، متمثلا في سباق الآية، يتمحّض لهم؛ فالآية الحادية عشر تحدثت عن محاولتهم قتل الرسول وأصحابه، وتلتها الآيتان الخامسة عشر والسادسة عشر اللتان تحدثتا عن بعث الرسول محمد -صلى الله عليه- إليهم، ثم قفّتهما الآية الثامنة عشر التي تحدثت عن مقالٍ مشتركٍ بينهم وبين النصارى يدل على غباوتهم في الكفر، ثم تبعتهما الآية التاسعة عشر مخاطبة أهل الكتاب، وهم هنا اليهود خاصة، على ما رجحه أبو حيان مستدلا بسبب النزول⁵¹، "تدعوهم إلى الإيمان بمحمد -صلى الله عليه- المُبَشِّرُ بِهِ فِي كُتُبِهِمْ، الْمُنتَظَرُ فِي اعْتِقَادِهِمْ، وَإِلَى شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ عَلَى حِينِ انْقِطَاعِ مِنَ الرِّسَالِ، وَطُولِ عَهْدٍ عَلَى الْوَحْيِ؛ لِإِذَا مَا مِنْهُمْ بِالْحُجَّةِ؛ فَلَا يَغْتَلُوا غَدًا بِأَنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ مَنْ يَنْبِئُهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ.

ليتسلط الضوء بعد ذلك على محاورتهم لنبيهم موسى -عليه السلام- التي غطت سبع آيات، من الآية (20 إلى 26)، ثم تأتي الآية السابعة والعشرون مُعْتَلِّقَةً بما قبلها، عائد ضمير الجمع المجرور في "عليهم" إلى اليهود؛ لما بين قصة ابني آدم وقصة تَمَرُّدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَصِيَانَتِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّهْوِضِ لِقِتَالِ الْجَبَّارِينَ - من التناسب والتشابه والتعلق"⁵².

أما السياق المقامي فيتجلى في الاستفادة من معرفة حال المخاطبين وتاريخهم، من خلال إحالتهم إلى كتبهم هم؛ وذلك لكون خبر ابني آدم مسطورا فيها، وهو من أمور الغيب التي لم يُعْلَمَ للرسول -صلى الله عليه- عليه- بها أي تعلق إلا من جهة الوحي؛ فهو أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَا يَصْحَبُ الْقُرْآنَ؛ لتقوم الحجة بذلك عليهم؛ إِذْ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ صِحَّةِ نُبُوءَتِهِ. أما قوم النبي -صلى الله عليه- فلا كتاب لهم قبل بعثته.

وبذلك يكون أبو حيان قد لاذ بدلالة السياق في تحديد مرجع الضمير، مرتكزا على السباق، عاملا بقاعدة: "إعادة الضمير إلى المحدث عنه أولى من إعادته إلى غيره"⁵³ من جهة، ومستثمرا السياق الخارجي، من جهة أخرى.

النموذج السابع: قال تعالى: "وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ" [الأعراف: 46]
الضمير المجرور في (بينهما) يحتمل أحد وجهين:

1- أصحاب الجنة وأصحاب النار.

2- الجنة والنار.

وجّه أبو حيان مرجع الضمير، فقال: "وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ"، أي: بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، لِأَنََّّهُمُ الْمُحَدَّثُ عَنْهُمْ، وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَقِيلَ: بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَهَذَا بَدَأَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَابْنُ عَطِيَّةَ. وَفُسِّرَ الْحِجَابُ بِأَنَّهُ الْمُعْنَى بِقَوْلِهِ: (فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ) ... وَيُقَوَّى أَنَّهُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ لَفْظُ (بَيْنَهُمْ)؛ إِذْ هُوَ ضَمِيرُ الْعُقَلَاءِ⁵⁴.

فضمير التثنية في "بينهما" -عند أبي حيان- يعود إلى فريقي أهل الجنة وأهل النار؛ لأنهم المحدث عنهم، أي أن السياق اللغوي بسباقه يتمحور حولهم، وليس حول الجنة والنار، وذلك في آية سابقة، هي قوله تعالى: "وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ" (الأعراف: 44)، وَإِذَا كَانَ أَحَدُ الْمُرْجِعِينَ هُوَ الْمُحَدَّثُ عَنْهُ وَالْآخَرُ فَضْلَةً، كَانَ عَوْدُهُ عَلَى الْمُحَدَّثِ عَنْهُ أَرْجَحَ؛ وَالْمُحَدَّثُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ الْفَرِيقَانِ، وَجَاءَ ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ عَلَى سَبِيلِ الْإِضَافَةِ إِلَيْهِمَا لَا أَنََّّهُمَا هُمَا الْمُحَدَّثُ عَنْهُمَا، فَالْأَصْلُ عَوْدُهُ لِلْمُضَافِ، وَهَذَا وَفْقَ مَا تَنَصَّ عَلَيْهِ الْقَاعِدَةُ التَّرْجِيحِيَّةُ: "إِعَادَةُ الضَّمِيرِ إِلَى الْمُحَدَّثِ عَنْهُ أَوَّلَى مِنْ إِعَادَتِهِ إِلَى غَيْرِهِ".

وبعد أن استثمر أبو حيان السياق الأصغر لبيان المرجعية، لجأ إلى تعضيد رأيه باستثمار السياق الأكبر؛ فاستشهد بآية من سورة الحديد، وهي قوله تعالى: "يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ" (الحديد: 13)؛ فالضمير المجرور في (بينهم) يعود على العقلاء؛ لأنه يتحدث عن فريق المؤمنين وفريق المنافقين اللذين يَفْصِلُ كُلًّا مِنْهُمَا عَنِ الْآخِرِ سُورٌ وَيَمْنَعُهُ مِنَ الْإِسْتِطْرَاقِ إِلَيْهِ، وآية الأعراف والحديد لهما نفس المضمون كما هو ظاهر، فتعيّن أن المراد من تثنية الضمير في آية الأعراف هو فريقا أهل الجنة وأهل النار، لا الجنة والنار؛ شأنها في ذلك شأن آية الحديد، حذو القذة بالقذة.

وقد أفاد أبو حيان من هذا التآزر السياقي، فظهرت جدواه في توجيه مرجع الضمير، وترجيح بعض المراجع على بعضها الآخر.

النموذج الثامن: قال تعالى: "وَكَتَبْنَا عَلِيمٌ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ" [المائدة: 45]

وجّه أبو حيان مرجع الضمير (له) في قوله تعالى: "فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ"، من خلال ما يمنحه المعنى السياقي للنص من احتمالات، فقال: "وَهُوَ" ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى التَّصَدُّقِ، أي: فالتصدق كفارة للمتصدق، وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَنْ تَصَدَّقَ بِجُرْجِهِ يُكَفِّرُ عَنْهُ. وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي (لَهُ) عَائِدٌ عَلَى الْجَانِي وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ، لَكِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى. وَالْمَعْنَى: فَذَلِكَ الْعَفْوُ وَالتَّصَدُّقُ كَفَّارَةٌ لِلْجَانِي تَسْقُطُ عَنْهُ مَا لَزِمَهُ مِنَ الْقِصَاصِ. وَكَمَا أَنَّ الْقِصَاصَ كَفَّارَةٌ، كَذَلِكَ الْعَفْوُ كَفَّارَةٌ، وَأَجْرُ الْعَافِي عَلَى اللَّهِ تَعَالَى⁵⁵.

فعائد الضمير يحتمل أحد وجهين دل عليهما السياق:

الأول: أن يكون عائداً إلى العافي، فتقديره أن المجروح أو ولي المقتول إذا عفا كان ذلك كفارة له، أي: للعافي. فالضمير -حينئذ- يعود على مذكور قريب يدل عليه فاعل الفعل في قوله: "فمن تصدَّق به"؛ أي: فالمتصدِّق به هو له كفارة.

والثاني: إلى المعفو عنه، أي إلى القاتل والجراح في قوله: "فهو كفارة له"، يعني أن المجني عليه إذا عفا عن الجاني صار ذلك العفو كفارة للجاني، أي: لا يؤاخذ الله تعالى بعد ذلك العفو، وأما المجني عليه الذي عفا فأجره على الله تعالى.

ومؤدَّى ذلك أن التصديق بالجرح في كلا الحالتين صادر من المجني عليه، أما الكفارة فيحتمل أن تكون من نصيبه أو أن تكون من نصيب الجاني؛ فهو (أي المجني عليه) في كلا الحالتين لا يعدم أجرا. فالوجهان محتملان، يتجاذبان السياق؛ إذ الأول يعود على مذكور قريب، والثاني مقدَّر مفهوم من السياق والمقام كما أشار إليه أبو حيان، ولا تعارض بينهما.

النموذج التاسع: قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ" [الأنفال:1]

حدَّد أبو حيان مرجع ضمير الفاعل في "يَسْأَلُونَكَ" فقال: "ضمير الفاعل في "يَسْأَلُونَكَ" لَيْسَ عَائِداً عَلَى مَذْكُورٍ قَبْلَهُ، إِنَّمَا يُفَسِّرُهُ وَقَعَةُ بَدْرِ، فَهُوَ عَائِدٌ عَلَى مَنْ حَضَرَهَا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَكَأَنَّ السَّائِلَ مَعْلُومٌ مُعَيَّنٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ. وَالْخِطَابُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"⁵⁶، وقال عن سبب نزولها: "ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر، وأمر غنائمه، وقد طوَّل المفسرون: الزمخشري، وابن عطية، وغيرهما في تعيين ما كان سبب نزول هذه الآيات، وملخصها: أنَّ نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة والاختصاص، ونحن لا نسبي من أبلى ذلك اليوم، فنزلت. ورضي المسلمون وسلموا وأصلح الله ذات بينهم"⁵⁷.

فضمير جمع الغائب في (يسئلونك) عند أبي حيان يحتمل مرجعا واحدا، لكنه غير مذكور في السياق النصي، وإنما هو معروف عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين السامعين حين نزول الآية، أي أنه يعرف بمعونة السياق الخارجي، وهو هنا سبب النزول، الذي يتمثل في غزوة بدر (الظرف الزماني للحدث)، وحال الأشخاص المشتركين فيها، وهم الصحابة الذين وقع بينهم تنافر واختلاف حول الأنفال.

وقد أحسن أبو حيان في استثمار معطيات السياق الخارجي (أسباب النزول) التي سيق فيها النص وجاء بيانا لها وعلاجا لظروفها-لتحديد مرجع الضمير في هذه الآية؛ فمن المعلوم أن النص القرآني منفتح "على الوقائع الحياتية؛ لأنه نزل في معترك الأحداث، فلا يجوز لمن يدرسه أن يغفل عن أسباب النزول التي ترتبط بها بعض الآيات، إذا صحت روايتها"⁵⁸.

10. خاتمة:

خرج الباحث من هذه الدراسة بمجموعة من النتائج، أهمها:

- 1- إن إعمال السياق في التفسير من قبيل تفسير القرآن بالقرآن.
- 2- يمكن لمن يدرس أقوال أبي حيان أن يلحظ دقته في إعادة الضمير إلى موضعه الصحيح، وكذلك استشهاده بآيات كريمة أخرى تدعم قوله وتبين صواب تفسيره، كما أنَّ هذا يُبرز مسألة مهمة في منهجه التفسيري، ألا وهي اعتماده تفسير القرآن بالقرآن، وهي أصح طرق التفسير وأشرفها.

3- يؤدي السياق دورا كبيرا في بيان مرجع الضمير، وتحقيق الترابط والتماسك الدلالي بين عناصر النص القرآني، بالإضافة إلى دوره في التفسير وإزالة اللبس والإبهام عن كثير من السياقات من خلال تحديد مرجع الضمير.

4- ظهر من خلال نصوص القرآن أن الضمير قد يرجع إلى أقرب مذكور، وإن أمن اللبس فهو يرجع إلى الأبعد، وإن لم يظهر للضمير مرجع فالسياق المقامي هو الذي يحدد مرجعه.

5- تتوقف معرفة السياق على الاجتهاد، ودقة النظر، وطول التأمل في كتاب الله تعالى، وهذا يتطلب دراية بحال المتكلم وحال السامع، وأسباب النزول، إضافة إلى ضرورة النظر في نظم النص وألفاظه ودلالات تركيبه، وذلك لاستنباط ملامح الترابط بينها.

الهوامش:

- ¹ - مفتاح محمد، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص99.
- ² - نهر هادي، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، تقديم: علي الحمد، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2007، ص347-348.
- ³ - المثنى عبد الفتاح محمود، السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، دكتوراه، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 2005، ص12.
- ⁴ - بودرع عبد الرحمن، منهج السياق في فهم النص، وزارة الأوقاف القطرية: منشورات كتاب الأمة، العدد111، محرم 1427هـ-فبراير 2006م، ص201.
- ⁵ - ينظر: حسن جبل عبد الكريم محمد، في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 1997م، ص74.
- ⁶ - عمر أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط7، 2009، ص69.
- ⁷ - الاسترأبادي رضي الدين محمد بن الحسن، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: يحيى بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1417هـ-1996م، القسم الثاني-المجلد الأول، ص111.
- ⁸ - ابن هشام النحوي عبد الله بن يوسف، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح: محمد أبو فضل عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1422هـ/2001م، ص75.
- ⁹ - الغريسي محمد، اللسانيات العربية والإضمار: دراسة تركيبية دلالية، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2014، ص13.
- ¹⁰ - ابن هشام النحوي، شرح شذور الذهب، ص75.
- ¹¹ - ينظر: بركات إبراهيم إبراهيم، الإبهام والمبهات في النحو العربي، دار الرخاء، المنصورة، مصر، 1987، ص75.
- ¹² - ينظر: مطهري صفية، الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، اتحاد الكاتب العرب، دمشق، 2003، ص204.
- ¹³ - ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، 490/2، 491؛ والقاموس المحيط، 720، 721.
- ¹⁴ - آيت أوشان علي، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1421هـ/2000م، ص46.
- ¹⁵ - بوزغاية رزيق، قيام الساعة في القرآن الكريم مدلولية النص ومرجعيتها، دكتوراه، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، 2012-2013م، ص118.
- ¹⁶ - التونجي محمد، والأسمر راجي، المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات)، إعداد ومراجعة: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج2، ص565.
- ¹⁷ - ينظر: الجندي طه محمد، التناوب الدلالي بين صيغ الوصف العامل، دار الكتب المصرية، 1998م، ص10.
- ¹⁸ - ينظر: معاني النحو، 61/1، وابن هشام النحوي، شرح شذور الذهب، ص76.
- ¹⁹ - ينظر: الهيشري الشاذلي، الضمير: بنيته ودوره في الجملة، كلية الآداب بجامعة منوبة، سلسلة اللسانيات، تونس، د.ط، 2003م، مجلد 17، ص83.
- ²⁰ - ينظر: أشرف عبد البديع عبد الكريم، البنية الدلالية والإحالية للضمائر، مقال، مجلة علوم اللغة، مصر، 2006م، مج9، ع3، ص15.
- ²¹ - إبراهيم بركات إبراهيم، الإبهام والمبهات في النحو العربي، ص74.
- ²² - ينظر: بعلبكي رمزي منير، معجم المصطلحات اللغوية، إنجليزي-عربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، يونيو 1990م، ص421.

- ²³ - القاسم عبد الحكيم بن عبد الله، عود الضمير وأثره في التفسير: دراسة لضمير الغائب المعتمد على الهاء في حزب المفصل، دكتوراه، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1430/1429هـ، 106/1.
- ²⁴ - المرجع نفسه، 106/1.
- ²⁵ - المرجع نفسه، 108/1.
- ²⁶ - ينظر: صبرة محمد حسنين، مرجع الضمير في القرآن الكريم (مواضعه وأحكامه وأثره في الأسلوب)، دار غريب، القاهرة، ط2، 2001م، ص4.
- ²⁷ - ينظر: الناصر صالح ناصر، من أسباب اختلاف المفسرين المتعلقة بمرجع الضمير، مقال، مجلة الحكمة، العدد 34، 1428هـ-2007م، ص263-279، وتصرفنا في كلامه بحذف الأمثلة.
- ²⁸ - ينظر: سيد أحمد إبراهيم، أثر السياق في توجيه المعنى في تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، دراسة نحوية دلالية، دار المحدثين، القاهرة، ط1، 2008م، ص381-382.
- ²⁹ - ينظر: أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر-بيروت، 1420هـ، 419/1.
- ³⁰ - ينظر: حسن عباس، د.ت، النحو الوافي، دار المعارف، ط15، 257/1.
- ³¹ - البحر المحيط، 419/1.
- ³² - البحر المحيط، 512/1.
- ³³ - البحر المحيط، 537/1، 538.
- ³⁴ - البحر المحيط، 512/1.
- ³⁵ - البحر المحيط، 512/1.
- ³⁶ - قواعد الترجيح عند المفسرين، 312/1.
- ³⁷ - ينظر تعريفه في: حسين شاكر محمود، التكامل السياقي القرآني لنهاية السماء (دراسة في التفسير العلمي)، مجلة كلية العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد 4، 50، شوال 1438هـ/29 حزيران 2017م، ص19.
- ³⁸ - ينظر تعريف السياق الأصغر والأكبر: غنيم عادل رشاد، المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، 1434/4/6هـ/2013/2/16م، ص18 و19 و28.
- ³⁹ - البحر المحيط، 71/3.
- ⁴⁰ - ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984م، 200/3.
- ⁴¹ - البحر المحيط، 71/3.
- ⁴² - التحرير والتنوير، 200/3.
- ⁴³ - التحرير والتنوير، 200/3.
- ⁴⁴ - ينظر: البحر المحيط، 72/3.
- ⁴⁵ - البحر المحيط، 127/4.
- ⁴⁶ - البحر المحيط، 129/4.
- ⁴⁷ - ينظر: البحر المحيط، 129/4.
- ⁴⁸ - ينظر: البحر المحيط، 130/4.
- ⁴⁹ - ينظر: الخازن علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ، 32/2.
- ⁵⁰ - البحر المحيط، 227/4.
- ⁵¹ - ينظر: البحر المحيط، 226/4.
- ⁵² - ينظر وجه التناسب في: البحر المحيط، 226/4، 227.
- ⁵³ - الحربي، قواعد الترجيح، 603/2.
- ⁵⁴ - البحر المحيط، 56/5.
- ⁵⁵ - البحر المحيط، 276/4.
- ⁵⁶ - البحر المحيط، 268/5.
- ⁵⁷ - البحر المحيط، 268/5.
- ⁵⁸ - صحراوي مسعود، المنهج الوظيفي في التراث اللغوي العربي، مقال، مجلة الدراسات اللغوية، إصدار: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس، ع1، 1424هـ-2003م، ص40.

12. المراجع:

المؤلفات:

- 1- أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، تح: صديقي محمد جميل، دار الفكر-بيروت، 1420هـ.
- 2- الاسترأبادي رضي الدين محمد بن الحسن، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: يحيى بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1417هـ-1996م.
- 3- آيت أوشان علي، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1421هـ/2000م.
- 4- بركات إبراهيم إبراهيم، الإيهام والمهمات في النحو العربي، دار الرخاء، المنصورة، مصر، 1987.
- 5- بعلبكي رمزي منير، معجم المصطلحات اللغوية، إنجليزي-عربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، يونيو 1990م.
- 6- ابن عاشور التونسي محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر-تونس، 1984م.
- 7- ابن هشام النحوي عبد الله بن يوسف، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح: محمد أبو فضل عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1422هـ/2001م.
- 8- التونجي محمد، والأسمر راجي، المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات)، إعداد ومراجعة: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
- 9- الجندي طه محمد، التناوب الدلالي بين صيغ الوصف العامل، دار الكتب المصرية، 1998م.
- 10- حسن جيل عبد الكريم محمد، في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 1997.
- 11- حسن عباس، النحو الوافي، دار المعارف، ط15، د.ت.
- 12- الخازن علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ.
- 13- سيد أحمد إبراهيم إبراهيم، أثر السياق في توجيه المعنى في تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، دراسة نحوية دلالية، دار المحدثين، القاهرة، ط1، 2008م.
- 14- صبرة محمد حسنين، مرجع الضمير في القرآن الكريم (مواضعه وأحكامه وأثره في الأسلوب)، دار غريب، القاهرة، ط2، 2001م.
- 15- عمر أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط7، 2009.
- 16- مطهري صفية، الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية، اتحاد الكاتب العرب، دمشق، 2003.
- 17- الغريسي محمد، اللسانيات العربية والإضمار: دراسة تركيبية دلالية، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2014.
- 18- مفتاح محمد، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990.
- 19- نهر هادي، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، تقديم: د.علي الحمد، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2007م.

الأطروحات:

- 1- بوزغاية رزيق، قيام الساعة في القرآن الكريم مدلولية النص ومرجعيتها، دكتوراه، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، 2012-2013م.
- 2- القاسم عبد الحكيم بن عبد الله، عود الضمير وأثره في التفسير: دراسة لضمير الغائب المعتمد على الهاء في حزب المفصل، دكتوراه، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1429/1430هـ.
- 3- المثنى عبد الفتاح محمود، السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، دكتوراه، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 2005م.

المقالات:

- 1- أشرف عبد البديع عبد الكريم، البنية الدلالية والإحالية للضمائر، مقال، مجلة علوم اللغة، مصر، مج9، ع3، 2006م.
- 2- بودرع عبد الرحمن، منهج السياق في فهم النص، وزارة الأوقاف القطرية: منشورات كتاب الأمة، العدد111، محرم 1427هـ-فبراير 2006م.
- 3- حسين شاكر محمود، التكامل السياقي القرآني لنهاية السماء (دراسة في التفسير العلمي)، مجلة كلية العلوم الإسلامية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد 50، 4 شوال 1438هـ/29 حزيران 2017م.
- 4- صحراوي مسعود، المنحى الوظيفي في التراث اللغوي العربي، مقال، مجلة الدراسات اللغوية، إصدار: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس، ع1، 1424هـ-2003م.
- 5- غنيم عادل رشاد، المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية، 1434/4/6هـ/2013/2/16م.
- 6- الناصر صالح ناصر، من أسباب اختلاف المفسرين المتعلقة بمرجع الضمير، مجلة الحكمة، العدد34، 1428هـ-2007م.
- 7- الهبشري الشاذلي، الضمير: بنيته ودوره في الجملة، كلية الآداب بجامعة منوبة، سلسلة اللسانيات، تونس، مجلد 17، د.ط. 2003م.